لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

سلسلة

الوعي والثورة

٤

القرآن الكريم

المصدر الأول

من مصادر

التشريع الإسلامي

من إصدارات
الجماعة
الإسلامية

القرآن الكريم

المصدر الأول

من مصادر

التشريع الإسلامي

« المصادر » جمع مصدر ، والمصدر مايتفرع عنه غيره ، فمصادر الشريعة هي : ماتؤخذ منها الأحكام الشرعية .

ومما تجدر الإشارة اليه : أن الشريعة الإسلامية لم تكن في أصولها ومصادرها وليدة أمور محلية طرأت ، أو ظروف أحاطت بمجتمع ما في زمن معين ، حتى تكون صدى لتلك الظروف ، أو انعكاسا لتلك الأحداث ، كما أنها لم تكن أثرا للإرادة الإنسانية بما يحرك تلك الإرادة من دوافع النفس وانفعالاتها حتى تكون خاضعة للأهواء والأغراض والمصالح الشخصية ، ولم يتمخض هذا التشريع عن صراع بين مصلحة الفرد والمجتمع حتى يتحدد على ضوء افتئات إحداهما على الأخرى .

التشريع الإسلامي سماوي الأصول فطري النزعة ، يتصل بالفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ... » وهو ماأنزل إلا ليخرج الناس عن دواعي أهوائهم ، وشطط نزعاتهم ومصالحهم الخاصة وأنانياتهم وأغراضهم .

وهكذا صونا لمصالح الخلق من عبث الأنانية الفردية ، وتخليصا لنفوسهم من وطأة الجور في الحكم ، وحفاظا لهم من شر الهوى

والتسلط ، جعل الإسلام أساس التشريع فيه لله وحده « .. إن الحكم إلا لله ... » (٢) ويتجلى هذا المصدر السماوي بالقرآن الكريم ، وإن بقية المصادر تابعة للقرآن أو مبينة وكاشفة لحكم الله ، وليست منشئة له ، فالمسلم لايقبل إلا حكم الله تعالي .

وأما أولوا الأمر في الأمة ، فلا يلون من أمر التشريع إلا إذا كانوا من المجتهدين الذين توفرت فيهم أهلية الإجتهاد ، ذلك لأنهم أفقه لكتاب الله وسنة رسوله ، وأعمق إدراكا لقواعد الإسلام الكلية ومقاصده الشرعية في حفظ مصالح الأمة .

وعلى هذا فما يأتون به من حكم ، لايعتبر تلقائيا ، ولاتشريعا ابتداعيا مستملى من هوى ولا مستوحى من أثرة مستبدة أو مصلحة ذاتية : وإنما هو تشريع مستنبط من نصوص الشريعة وروحها ومقاصدها . فهو في حقيقة الأمر : إظهار لحكم الله ، وكشف له ، وليس ابتداعا لأحكام من عند أنفسهم : علي أن الرسول صلى الله عليه وسلم رغم عصمته فقد أمره الله تعالى بالشورى ، مع أنه في غني عنها ، إذ لايقر على خطأ ، ولكن ليوصل أصلا ، ويرسي قاعدة وهي : « الشورى في الحكم ... » « وأمرهم شورى بينهم .. » (٣) « وشاورهم في الأمر » (٤)

وهكذا لم يخلق الله الناس عبثا ، ولم يتركهم وشأنهم يستبد كل برأيه ، بل شرع لهم لكل فعل حكما يختص به ، وجعل لهذه الأحكام مصادر تؤخذ منها ، إلا أن هذه المصادر منها ماهو متفق علي حجيته عند جمهور العلماء وتسمى « أصلية » ، ومنها ماهو محل خلاف بينهم وتسمى « مصادر تبعية » لأنها ترجع الى الأولى وتتبعها .

وعلي أي حال : فالمصادر كلها ترجع الي مصدر واحد ، وهو النصوص ، وهي في الكتاب والسنة فكل مصدر بعد ذلك منبعث منهما ، معتمد عليهما ، ولذا يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : « إن الأحكام لاتؤخذ إلا من نص أو من حمل على نص » ، وإذا كان القرآن الكريم هو مصدر المصادر ، فهو متقدم عليها جميعا وهو المرجع الأول لمن أراد معرفة حكم من الأحكام ، فإن لم يجد فيه رجع إلى السنة وإن لم يجد في السنة رجع الى الإجماع ، فإن لم يكن في المسألة إجماع رجع الى القياس ، فالقياس آخر الأدلة الأصلية الأربعة ، وهي مرتبة كما بينت : الكتاب ، السنة ، الإجماع ، القياس .

والبرهان علي الإستدلال بهذه المصادر قوله تعالى : « يأيها

الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ... » (٥) .

والدليل علي هذا الترتيب مارواه البغوي من حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه قاضيا علي اليمن قال له صلى الله عليه وسلم : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو- أي لاأقصر في البحث والإجتهاد - قال معاذ : فضرب رسول الله صلي الله عليه وسلم صدري بيده ، ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » .

ولقد قال عمر رضي الله عنه في كتابه الذي أرسله الي أبي موسى الأشعري : « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة أعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك » وأما الأدلة الفرعية - التي لم يتفق جمهور العلماء على الإستدلال بها ، فمنهم من استدل بها ومنهم من أنكر الإستدلال بها - فكثيرة وأشهرها : الإستحسان ، والمصالح المرسلة ، والعرف ، ومذهب الصحابي ، وشرع من قبلنا ، وسد الذرائع .

وسأبحث في كل من هذه المصادر المتفق عليها ، والمختلف فيها في مبحث علي حدة ، إلا انني أبين قبل ذلك أمورا تشملها جميعا .

الأمر الأول :

تقسيم الأدلة الى قسمين : أدلة نقلية ، وأدلة عقلية .

فالأدلة النقلية طريقها النقل ، ولادخل للمجتهد في إيجادها ، كالكتاب والسنة ، فلا دخل للمجتهد فيهما ، وكذلك الإجماع ، فإنه موجود قبل اجتهاد المجتهد ، وكذلك العرف ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابي ، فكل ذلك راجع الي العمل بأمر ثابت لادخل للمجتهد في وجوده ، ولاإنشائه .

والأدلة العقلية هي التي يكون للمجتهد دخل في وجودها ، كالقياس والمصالح المرسلة والإستحسان .

وهذا التقسيم إنما هو بالنظر لذات الأدلة ، لا بانظر للإستدلال بها ، فكل واحد من النوعين مفتقر إلى الآخر ولاغنى له عنه .

فالإستدلال بالمنقول لابد فيه من النظر بالعقل ، والإستدلال بالمعقول لايعتد به في نظر الشارع إلا إذا كان معتمدا علي النقل ، إذ العقل المحض لادخل له فى تشريع الأحكام .

الأمر الثاني :

ان الأدلة الشرعية لاتنافي قضايا العقول السليمة ، فلا يمكن أن يوجد دليل صحيح يعارض العقل السليم ، والتعارض إنما يقع في حالة عدم صحة الدليل ، أو عدم فهمه فهما صحيحا ، أو في حالة إصابة العقل بمرض كالعته ، أو إصابته بهوى أو غرض أو مصلحة ذاتية .

فالله تبارك وتعالى أقام الأدلة وأنزلها على الأنبياء والرسل لتتلقاها عقول المكلفين بالقبول : حتى يعملوا بمقتضاها ، ولو كانت متعارضة مع القول لم تتلقها بالقبول ، وبالتالي لم تعمل بها ، ولو كانت الأدلة أو التكاليف متناقضة مع العقول لكان التكليف بها تكليفا بما لايطاق ، وذلك من جهة التكليف بما لايصدقة العقل ولايتصوره .

وبناء على ذلك : لاتكون هناك فائدة من تشريع الشرائع وتنزيل الكتب لتبليغها للناس ، ويكون ذلك كله عبثا ، والله تعالى لايفعل العبث بل منزه عنه وهذا يؤكد أن تكون الأدلة متلائمة مع العقل السليم ، وإلا لو جاءت على خلاف مايقتضيه العقل ، لكان لزوم التكاليف على العاقل أشد من لزومها علي المجنون والصبي

والنائم ، إذ لاعقل لهؤلاء يصدق أو لايصدق ، بخلاف العاقل الذي يأتيه بما لايمكن تصديقه لتناقضه مع العقل ، ولكان التكليف ساقطا عن العقلاء من باب أولى .

الأمر الثالث :

ان المصادر نوعان ، منها : ماهو أصل مستقل بنفسه في التشريع ، كالكتاب والسنة ، ومنها : غير مستقل بنفسه ، كالقياس والإستحسان .

وإنما كانت الأولى مستقلة في ذلك ، لأنها لاتحتاج في إثبات الحكم بها لأي شئ آخر .

وإنما كان القياس وماشابهه ، أصلا غير مستقل بنفسه ، لاحتياجه في إثبات الحكم به الى أصل وارد في الكتاب او السنة ، أو الإجماع ، وكذلك معرفة العلة التي من أجلها شرع الحكم في الأصل وبدون ذلك لايثبت الحكم بالقياس .

فالقياس في الحقيقة ، لم يثبت الحكم في الفرع ، وإنما أظهر شمول النص أو الإجماع لذلك الفرع . ولذلك قال العلماء : إن القياس مظهر للحكم ، لامثبت .

المصدر الأول : الكتاب « القرآن الكريم »

ويتناول مايلي :

(١) « تعريف الكتاب لغة واصطلاحا وتعريف القرآن »

(٢) نزوله .

(٣) حفظ القرآن وجمعه .

(٤) ترتيب السور والآيات .

(٥) خصائص القرآن الكريم .

(٦) حجية القرآن وإعجازه .

(٧) وجوه إعجازه .

(٨) أنواع أحكامه .

(٩) دلالة القرآن على الأحكام .

(١) تعريف بالمصدر الأول ، الكتاب (القرآن الكريم)

إذا دققنا النظر وجدنا أن مصدر الأحكام الشرعية واحد ، وهو قول الله تعالى ، إذ قول الرسول صلى الله عليه وسلم خبر عن الله تعالى أنه حكم بكذا وكذا ، والإجماع يستند الى قرآن

أوسنة ، فالحكم لله تعالى وحده .

فالكتاب هو المصدر الأول والأساس ، وهو محور الشريعة وقطب رحاها ، وهو أجل أن يعرف أو يحد بحد .

والكتاب في اللغة : مصدر كتب ، وهو اسم للمكتوب . وفي اصطلاح أهل الشرع : هو القرآن الكريم ، والقرآن في اللغة : مصدر قرأ ، كما في قوله تعالي (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)«٦» والمراد به : كلام الله تعالى المقروء على ألسنة العباد ، ويعرف : أنه كلام الله تعالى الذي نزل به جبريل على قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظه العربية ليكون حجة للرسول ، ودستورا للناس يهتدون بهداه ، ويتعبدون بتلاوته ، وهو المدون بين دفتي المصحف المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس ، والمنقول بالتواتر ، والمعجز بألفاظه ومعانيه ، والمحفوظ من أي تبديل أو تغيير

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٧)

وقد قسم القرآن الكريم الى سور بلغ مجموعها أربع عشرة سورة ومئة سورة أولها : سورة الفاتحة ، وآخرها : سورة الناس (٨) وتتألف كل سورة من آيات ، وقد بلغ مجموع مافي القرآن من

آيات (٦٣٤٢) آية .

(٢) نزول القرآن ، وأول وآخر مانزل :

لقد كان نزوله منجما ، أي مفرقا ، تنزل الآية ، أو الآيات ، أو السورة حسب مقتضيات الأحوال والحاجات ، وأول مانزل من القرآن ، بسم الله الرحمن الرحيم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » (٩) وذلك في يوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من عمره صلى الله عليه وسلم (١٠) وآخر مانزل قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » (١١) ، فهذه آخر آية نزلت على الإطلاق ، نزلت قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بتسع ليال ، أما الآية « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا .. » (١٢) فهي آخر آية من الآيات التشريعية لاآخر آية على الإطلاق .

والمدة بين بداية التنزيل واختتامه اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما .

(٣) حفظ القرآن وجمعه :

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزلت آية ، أو آيات جمع كتاب الوحي وحفاظ القرآن فيحفظون ويكتبون وهكذا لم ينتقل رسول الله صلي الله عليه وسلم الي الملأ الأعلي إلا والقرآن الكريم محفوظ في صدور الحفاظ يحفظه الكبير والصغير والرجل والمرأة ، ومكتوب في صحف الكتاب ، ولم يكن مجموعا في مصحف واحد في عصر الرسول صلي الله عليه وسلم نظرا لترقب نزول الوحي ، ولقصر المدة بين آخر مانزل وبين وفاته صلي الله عليه وسلم فقد كانت تسع ليال علي القول الراجح .

ولقد جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في عهد أبي بكر رضي الله عنه حيث روى الثقات أن سيدنا عمر أول من تنبه لضرورة جمع القرآن بعد استشهاد سبعين شهيدا من الحفاظ المشهورين في موقعة اليمامة فذهب الي سيدنا أبي بكر الخليفة وقال له : إني أرى أن تأمر بجمع القرآن خشية ضياع شئ منه باستشهاد حفاظه ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عمر رضي الله عنه : هو والله خير ، ومازال عمر يراجع أبا بكر حتى شرح

الله صدر أبي بكر للذي شرح له صدر عمر ، فأرسلا الي زيد بن ثابت وعرضا عليه الأمر وقالا له : إنك شاب عاقل لاتتهمك وإنك كنت تكتب الوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن واجمعه ، فقال لهما : كيف تأمراني أن أفعل فعلا لم يفعله رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟ فقالا له هو والله خير ، ومازالا يراجعانه حتى شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فقال : والله لو كلفتموني نقل جبل لكان أهون علي ، فانطلق يجمعه من صدور الرجال ومن الرقاع التي كان مكتوبا عليها ومن سعف النخل ، وغير ذلك ، وكان لايقبل كتابة آية حتى يشهد شاهدان أنه سمعها من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكتبها بين يديه .

وهذا هو الجمع الأول ، ثم حفظ المصحف عند أبي بكر مدة خلافته ، ثم عند عمر مدة خلافته ، ثم عند حفصة ابنة عمر وأم المؤمنين بعد وفاة عمر .

وفي عهد عثمان تنبه حذيفة بن اليمان حينما كان يحارب في أرمينيا وآذربيجان الى اختلاف الناس في لهجاتهم ، فأسرع الى الخليفة عثمان وقال له : ادرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في

القرآن اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، وطلب منها أن ترسل المصحف لأجل نسخه في مصاحف متعددة ، وكلف زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعبد الله بن الزبير أن يقوموا بكتابة نسخ عن النسخة الأصلية ، فتم ذلك ونسخوا ستة مصاحف أرسلت الي الأمصار والعواصم ، وأمر عثمان بحرق ماسواها من الصحف .

(٤) ترتيب السور والأيات :

ومما يجب أن يلاحظ أن ترتيب السور في المصحف وأسمائها ، وكذلك ترتيب الأيات توقيفي عن الله عز وجل ، فكان جبريل كلما نزلت آية أو آيات يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : « يامحمد ضعها على رأس كذا من سورة كذا »

(٥) خصائص القرآن :

خصائصه كثيرة منها :

أ) أن ألفاظه عربية أنزلها الله علي قلب رسوله ، وبهذه الخاصة يمتاز القرآن الكريم عن غيره من التوراة والإنجيل ، لأنها نزلت بغير العربية ، فتفسير سورة أو آية بألفاظ عربية مرادفة لألفاظ

القرآن الكريم ، دالة علي مادلت عليه ألفاظه ، لايعد قرآنا مهما كان مطابقا في دلالته ، بل يسمى تفسيرا ، كما أن ترجمة القرآن الكريم أو ترجمة آية بأي لغة غير عربية لا تعد قرآنا مهما روعي في الترجمة من الدقة والمطابقة ، نعم تعتبر تفسيرا إذا كانت الترجمة مطابقة وتتم على يد من يوثق بدينه واختصاصه وأمانته وحذقه ، ولكن علي أي حال لاتعتبر قرآنا ، ولاتصح الصلاة بها ، ولايتعبد بتلاوتها .

ب) ومن خصائص القرآن الكريم أيضا : أن الألفاظ والمعاني كلاهما منزل من عند الله عز وجل ووظيفة الرسول صلي الله عليه وسلم التبليغ الي الناس ، وبيان مايحتاج الى البيان ، وبهذه الخاصة يمتاز القرآن عن الأحاديث الصادرة عن الرسول صلى الله لعيه وسلم سواء منها الأحاديث القدسية أو النبوية : لأن معاني الأحاديث من الله تعالى ، أما الألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه صلي الله عليه وسلم لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

ج) ومن خصائص القرآن أنه نقل إلينا بطريق التواتر ، برويه جمع كثير عن جمع كثير بحيث يستحيل احتمال اتفاقهم على

الكذب ، والتواتر للقرآن كتابة ومشافهة في جميع العصور من وقت أن نزل الي يومنا هذا ، وذلك لأن القرآن الكريم كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم - كما بينت - كتاب الوحي ، وحفظه جمع كبير من الصحابة ، لايمكن اتفاقهم علي الكذب ، ثم تناقلته الجموع الكثيرة حفظا في الصدور والسطور جيلا بعد جيل الي أن وصل الينا مكتوبا في المصاحف ، ومحفوظا في الصدور ، من غير تحريف ولاتبديل « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١٣) .

وهكذا نقل الينا بطريق يفيد اليقين والقطع بصحة الرواية ، فيعتبر القرآن الكريم أصح وثيقة عرفها الإنسان .

(٦) حجية القرآن وإعجازه :

القرآن الكريم حجة علي الناس يجب عليهم اتباعه : لأنه من عند الله نقل إلينا بطريق قطعي لاشبهة فيه ولايجوز العدول عنه الي غيره من الأدلة ، لأنه كلام الله عز وجل الذي « لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (١٤) أنزله ليكون دستورا للناس يهديهم الي الحق .

أما البرهان علي أن القرآن من عند الله فهو إعجازه ، والإعجاز

معناه نسبة العجز الي الغير وإثباته له ، لكن المراد من مايلزمه من إظهار صدق النبي في دعوى الرسالة ، ولايتحقق الإعجاز إلا بتوفر أمور ثلاثة ، الأول : التحدي ، والثاني : وجود المقتضى الذي يدفع الي المباراة ، والثالث : أن ينتفي المانع الذي يمنع من المباراة .

والقرآن الكريم توفر فيه التحدي به ، ووجد المقتضى لمن تحدوا به أن يعارضوه ، وانتفى المانع الذي يمنعهم من معارضته أيضا .

أما التحدي : فقد تحداهم بألفاظ قارعة واخزة أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، وأقسم أنهم لايأتون بمثله ولن يأتوا ، قال تعالى: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١٥)

وقال تعالي : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »(١٦) وقال تعالي : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (١٧) وأما وجود المقتضي للمعارضة : لأن

الرسول إدعى أنه رسول الله ، وبما هم بدين يبطل دينهم وسفه عقولهم ، وسخر من أوثانهم ومايعبدون ، واحتج على دعواه بأن القرآن من عند الله ، وتحداهم أن يأتوا بمثله . فما كان أشد حرصهم على أن يأتوا بمثله ليبطلوا أنه من عند الله ، وبذلك يدافعون عن دينهم .

وأما انتفاء المانع عن المعارضة : لأن القرآن بلسان عربي ، وألفاظه ، من أحرف العرب وعباراته على أسلوبهم ، وهم أهل البلاغة والبيان والفصاحة ، ولقد قال قائلهم : « والله مامنكم رجل أعرف بالأشعار مني ، ولا أعرب برجز الشعر ، والله مايشبه الذي يقوله شيئا من هذا ، والله إن قوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم مانحته »

٧) وجوه إعجاز القرآن الكريم :

إن القرآن الكريم لم يكن إعجازه من ناحية معينة بل من نواحي متعددة لفظية ومعنوية تجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه . كما أنه من المتفق عليه : إن العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك جميع نواحي الإعجاز ، أو حصرها ، بل كلما زاد التأمل والتدبر

في آيات القرآن الكريم ، وكلما كشف البحث العلمي عن أسرار الكون وسننه ظهرت نواح جديدة من نواحي الإعجاز ، وقام دليل جديد على أن القرآن من عند الله تعالى ، فلم يكن القرآن معجزا للعرب وحدهم بل للناس أجمعين ، ولعل من أبرز نواحي الإعجاز

أ) :- انسياق عباراته وتطابقه وأحكامه .

يتكون القرآن من أكثر من ستة آلاف آية نزلت خلال فترة زادت عن عشرين سنة ، وعبرت عما قصدته بعبارات متنوعة وأساليب شتى ، وتعرضت لموضوعات متعددة : في الإعتقاد ، والأخلاق ، والتشريع ، وقررت نظريات كونية واجتماعية ، ومع كل ذلك لا نجد في عبارات القرآن وألفاظه خلافا ولا نجد عبارة أرقى مستوى ، في بلاغتها من عبارة أخرى بل كل لفظ في موضعه الذي يجب أن يكون فيه ، كما لا تلاحظ فيه معنى من معانيه يعارض معنى آخر ، أو حكما يناقض حكما ، أو مبدأ يهدم مبدأ ، كما لا اختلاف في عباراته وألفاظه ولا في معانيه وأحكامه ، ولا في مبادئه وقواعده ، ولو كان صادرا من عند غير الله أفرادا أو جماعات لما سلم من اختلاف بعضه مع البعض الآخر لأن العقول الإنسانية مهما كملت ونضجت لا يمكنها أن تكون متة

آلاف آية في ثلاث وعشرين سنة لاتختلف أية عن آية في معناها، أو ماشتملت عليه من وجوه الإعجاز ، أشارت الأية الكريمة : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١٨) .

ب)- بلاغة ألفاظه وفصاحة عباراته :

بلاغة القرآن الكريم وارتفاعها الى درجة لم تعرف في كلام العرب قط ، وقد أدرك ذلك الذين كانوا يتذوقون البيان العربي وينقدونه ، وقد وازنوا بينه وبين ماكانوا يعرفونه من شعر بليغ ونثر فصيح ، فوجدوه متميزا ، ورأوا فيه جزالة في الألفاظ وأسلوبا رائعا ، يشتد أحيانا كالقارعة بل تراه أشد من الصخر ، ويرق أحيانا وكأنه أرق من الماء ، وألين من الهواء ، ومع هذه الجزالة في الألفاظ والروعة في الأسلوب ترى النظم الخاص المحكم الذي ليس على ميزان الشعر المقفى ، ولا على منهاج النثر المسجوع ، أو المرسل ، إنما هو منهاج قائم بذاته ، وليس فيه لفظ ينبو عن السمع أو يتنافر مع ماقبله أو مابعده ، وعباراته في مطابقتها لمقتضى الأحوال في أعلي مستوى بلاغي ، ويتجلى هذا لمن له ذوق عربي بلاغي . ولقد روى مسلم فى صحيحه أن أنيسا أخا

أبي ذر قال لأبي ذر : « لقد لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس عنه ؟ قال : يقولون شاعر كاهن ساحر ، وكان أنيس من الشعراء ، ولكنه قال : سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، وقد وضعته على أقوال الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد ، بأنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون » .

ج) -أخبار القرآن عن مغيبات القرون السابقة :

فقد أخبر عن عاد وثمود وقوم نوح وابراهيم وقوم لوط وأخبار موسى وقومه وفرعون وأمره ، وأخبار مريم وولادتها ، وأخبار الأنبياء السابقين . وكانت أخباره صدقا تتفق مع الصادق المعقول من كتب أهل الكتاب ، وكل ذلك جاء على لسان أمي لايقرأ ولايكتب ، ولم يجلس الي معلم ، ولم يتخرج من مدرسة أو جامعة ، وماكانت بيئته بيئة علم وكتاب حتى يمكن أن يتعلم الأخبار والوقائع منهم ، لذلك كان دليلا على أن ماجاء به من عند الله تعالى ، ولذا يقول سبحانه « وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » (١٩) .

ولما تحير الجاحدون ، أرادوا أن يفتروا الكذب ، وادعوا أنه يعلمه

بشر ، ولم يجدوا بمكة إلا فتى روميا لايحسن العربية ولايعلم من علم الأولين شيئا ، ولهذا قال سبحانه « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين »(٢٠) والي هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد سبحانه وتعالى فقال : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ، ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا » (٢١)

د) ومن وجوه الإعجاز اخباره عن المغيبات المستقبلة :

أخبر القرآن الكريم عن وقوع حوادث مستقبلية وقعت كما أخبر ، ومن ذلك إخباره عن انهزام الفرس بعد انهزام الروم ، فقد قال سبحانه وتعالي : « ألم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين » (٢٢) وإخباره بالنصر في غزوة بدر ، فقد قال سبحانه وتعالي : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ... » (٢٣) كما وعد الله عز وجل بدخولهم المسجد الحرام ، فقال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون ،

فعلم مالم تعلموا »(٢٤) .

كما وعد الله سبحانه المؤمنين بالإستخلاف في الأرض ، قال تعالي : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الزأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولـ كن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ... » (٢٥) .

وقد تحقق كل ماأخبر عنه القرآن الكريم ، وهذا دليل قاطع علي أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى .

هـ)- ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم :

اتفاق ماجاء به مع الحقائق العلمية المكتشفة (اليقيني من العلم) لقد نزل القرآن الكريم ليكون دستوراللناس يسيرون علي هديه ، ولم ينزل ليكون كتاب كيمياء أو فيزياء ، ولم يكن من مقاصده تقرير نظريات علمية في خلق الإنسان أو الكواكب ، ولكنه في مجال الإستدلال علي وجوده سبحانه ووحدانيته ، أو تذكير الناس بنعمه ،.عرض كثيرا من الحقائق العلمية في خلق الإنسان والأرض والسماء ، ولق أثبت العلم الحديث صدقها مما لامجال لانكار منكر لها ، بل كلما كشف البحث العلمي حقيقة علمية - كان القرآن قد أشار اليها - ظهر دليل جديد على أن القرآن من

عند الله سبحانه ، والي هذا الوجه من وجوه الإعجاز أشارت الأية الكريمة : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي آنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه علي كل شئ شهيد » (٢٦).

من ذلك قوله سبحانه : « بلى قادرين علي أن نسوي بنانه »(٢٧) ، وقوله : « فمن يرد الله أين يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ...»(٢٨) .

وقوله سبحانه : « وأرسلنا الرياح لراقح ... » (٢٩) وقوله تعالي : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شئ حي » (٣٠) وقوله سبحانه : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك ألله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون »(٣١) .

وقوله تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز

العليم »(٣٢) ، وقوله سبحانه وتعالى : « وكل في فلك يسبحون » (٣٣)وقوله سبحانه وتعالي « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شئ »(٣٤) وغير ذلك من الآيات الكونية المنبثة في ثنايا القرآن الكريم وهي دلائل قاطعة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى : لأنه لايتصور من أمي لايقرأ ولايكتب ، لم يطلع علي علم ، ولم يغادر مكة إلا مرتين الي الشام ، الأولى : في الثانية عشرة ، والثانية : في الخامسة والعشرين من عمره ، يمكن أن يعلم هذه الحقائق التي يكتشفها العلم إلا بعد قرون وقرون .

و)- ومن وجوه إعجاز القرآن :

ماشتمل عليه من أحكام منظمة وتشريعات شاملة لأفعال الناس كفيلة بأرقى حضارة يتطلع اليها الإنسان وأرفع مدنية ينشدها ، وكفيلة بإنشاء الإنسان الراقي المتحضر ، وإيجاد العالم الجديد المتحرر الذي يقوم علي الحق والفضيلة والعدالة والمساواة والأخوة والتعاون : فلقد وضع القرآن في ذلك أرفع المبادئ وأقوم القواعد التي تنظم أمور الدين والدنيا ، وبما يحقق مصلحة الفرد والجماعة ، دون أن تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، ودون أن

تطغى مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، فتهدر كيانه ووجوده ، بل وضع النظم التي تسعد الإنسان ، وتحقق له الإستقرار والطمأنينة والرفاهية ، ولقد جاء القرآن بهذه النظم التي تسعد الإنسان ، وتحقق له الإستقرار والطمأنينة والرفاهية ، ولقد جاء القرآن الكريم بهذه النظم والتشريعات ، المنظمة للعلاقات الفردية والدولية الي قوم لم يكن فيهم قانون ولانظام ، بل يسود فيهم النظام العشائري المبني علي العادات والتقاليد ، فجاءهم بشريعة اعتبرت الناس جميعا صانعهم واحدا هو الله تعالى ، وطينتهم واحدة وهي التراب ، فالناس جميعا أمام التشريع سواء ، فلا مجال للتمايز ، لا بلون ولا بجنس ولابثروة ولا بسلطة ، فلو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ، وأعطى الحرية الكاملة لكل بالغ ، لافرق بي ذكر وأنثى ، وأعطى المرأة حقها كاملا ، وجعل لها ذمة كاملة ، ومستقلة عن ذمة الزوج ، ولم تصل الى الحق الأخير الى اليوم إلا في بعض التشريعات الحديثة كما أقام القرآن الكريم نظاما دقيقا عادلا للمواريث لم يصل الي مثله أي نظام ، لافي الماضي ولا في الحاضر ، وكل القانونيين المنصفين يعترفون أنه أمثل نظام عرفته البشرية ، وقد جاء كل

هذا على لسان أمي ، ولم يعلم أحد شيئا من هذه الأحكام قد وجد في تشريع قبله . وإذا كان القانون الروماني كما يقرر العلامة أبو زهرة جاء نتيجة لتجارب قرون ، وانتفع من نظم أثينا ، ونظم اسبرطه ، وجمهورية افلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو وغيره ، ومع ذلك جاء ناقصا بالنسبة لما جاء به ذلك الأمي الذي لايقرأ ولايكتب ، ولم يجلس الي معلم . فبأي شئ نفسر شريعة القرآن في كل شئ ، وإذا كان هو يقول : إنها من عند الله ، فبأي حق أو مستند نكذبه ؟ والإمارات شاهدة والبينات قاطعة ولذلك نؤكد أن شريعة القرآن هي أقوى وجوه الإعجاز ، وهي دالة علي إعجازه الي يوم القيامة ، وهي قائمة الي اليوم حجة على العرب وغيرهم ، لايفترق في قبولها من يعرف لسان القرآن ومن لايعرفه ، كما قال سبحانه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الي النور بإذنه ، ويهديهم الي صراط مستقيم »(٣٥) ، وقال تعالي : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... » (٣٦)

(٨) أنواع الأحكام التي اشتمل عليها القرآن :

اشتمل القرآن الكريم علي جميع الأحكام التي تتعلق بالإنسان إجمالا ، سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة ، وأبين فيما يلي بإيجاز أنواعها :

أولا :

الأحكام الإعتقادية التي تتناول أمور العقيدة وأركانها ومايفترض علي المسلم اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

ثانيا :

الأحكام الأخلاقية التي تتعلق بالمحاسن والآداب والفضائل والسلوك الذي يجب أن يكون عليه الفرد المسلم .

ثالثا :

الأحكام العملية وهي تشتمل علي نوعين :

النوع الأول : -

أحكام العبادات التي تنظم علاقة الإنسان بربه من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذور ونحوها من العبادات .

النوع الثاني :

أحكام المعاملات التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض سواء أكانوا أفرادا أم جماعات أم أمما وهي تتناول مايلي :

أ)- أحكام الأسرة - من نكاح ونسب وطلاق ونفقة وميراث وجميع ماينظم العلاقات بين أفراد الأسرة من الزوجين والأولاد والأقارب وهو مايسمى الأحوال الشخصية .

ب)- الأحوال المتعلقة بتعامل الناس بعضهم مع بعض في الأموال والحقوق من معاوضات مالية وأمانات وفصل منازعات من بيع وإجارات وشركات وعقود توثيق وتسمى أحكام المعاملات أو الأحكام المدنية .

ج)- الأحكام التي تتعلق بضبط النظام الداخلي بين الناس وعقاب المجرمين مما يقصد به حفظ الحياة والعرض والمال وسائر الحقوق وهي تشمل : القصاص ، والحدود ، والتعازير ، وتسمى العقوبات أو الأحكام الجنائية .

د)- الأحكام المتعلقة بنظام القضاء والشهادات والإجراءات لتحقيق العدل بين الناس وتسمى بأحكام المرافعات أو أصول المحاكمات .

هـ)- الأحكام المتضمنة لنظام الحكم وأصوله وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وحقوق وواجبات كل منهما وتعرف بالأحكام السلطانية أو الدستورية .

و)- الأحكام المتعلقة بتنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء بين الدول والأفراد وتنظيم الموارد والمصارف في الدولة وتعرف بالأحكام الإقتصادية .

ز)- الأحكام التي تنظم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى في السلم والحرب وتنظيم المعاهدات ومعاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية من ذميين وتعرف بالجهاد والسير ، أو الأحكام الدولية .

هذه مجمل الأحكام التي تناولها القرآن الكريم وهي تهدف الى سعادة الإنسان وصلاحه ، وإن المتأمل في آيات الأحكام يستنتج: أن القرآن قد فصل في أمور العقيدة وفي أحكام الأحوال الشخصية والميراث والحدود ، والكفارات وأصول العبادات .. لأن أكثر أحكام هذه الأنواع لامجال للعقل فيه ولايتغير بتغير الظروف أو البيئات ولايتغير بتغير الزمن .

وأما ماعدا العبادات والأحوال الشخصية والميراث والحدود من

الأحكام الدستورية والجنائية والدولية والمدنية والإقتصادية فأحكامه فيها كانت عبارة عن مبادئ عامة وقواعد كلية إجمالية ولم يتعرض القرآن فيها للأحكام الجزئية إلا نادرا ، فقد رسم القرآن الخطوط العريضة وترك للمجتهدين سعة في أن يفصلوا حسب المصالح لتكون الأحكام متطورة بتطور البيئات والمصالح وملبية للحاجات والظروف مما يجعلها خالدة شاملة .

٩)- دلالة القرآن علي الأحكام :

الكتاب قطعي الثبوت : لأنه وصل الينا بطريق التواتر الذي يفيدنا القطع بصحة مانقل الينا كما بينت فقد نقله الجمع الكثير عن الجمع الكثير في الصدور والمصاحف جيلا بعد جيل ، مما يستحيل بالعقل إمكان التواطؤ علي الكذب فهو أصح وثيقة عرفتها البشرية .

أما دالة القرآن على الأحكام فهي نوعان :-

أ) إما أن تكون دلالة قطعية كآيات المواريث والحدود « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ... » (٣٧) « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ... »(٣٨).

« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٣٩) فإن المائة والثمانين والنصف والربع والثلث ونحو ذلك من الألفاظ التي تدل علي معناها دلالة قطعية ولاتحتمل أي تأويل ولهذا لامجال للإجتهاد فيها ولا للإختلاف في التفسير أو الفهم فأحكامها لاتقبل أي تبديل أو تغيير أو تعديل لأن تعديلها يؤدي الي مخالفة النص فالدلالة قطعية .

ب)- وإما أن تكون دلالة النص القرآني ظنية وذلك إذا كان اللفظ الوارد في النص محتملا لأكثر من معنى وذلك كلفظ القروء في قوله تعالي

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ... » (٤٠). فإن القرء يحتمل أن يراد به الحيض أو يراد به الطهر لاستعماله في اللغة لكل من المعنيين بطريق الإشتراك فتكون الدلالة علي كل واحد بعينه ظنية لاقطعية ولهذا يكون النص محلا للإجتهاد واختلاف المجتهدين فمنهم من فسره بالحيض كالحنفية ومنهم من فسره بالطهر كالشافعية ، وكذلك قوله تعالي

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... » (٤١) فاليد تشمل اليد اليمنى واليد اليسرى فهي مشترك وتحتمل كلا

منهما كما يحتمل أن يراد باليد من الأصابع الي الرسغ أو الي المرافق أو الي الإبط لذا تكون الدلالة ظنية وتأتي السنة بعد ذلك لتبين المراد .

الهوامش

(١) الروم آية / ٣٠ .

(٢) الأنعام آية / ٥٧ .

(٣) الشورى آية / ٣٨ .

(٤) آل عمران آية / ١٥٩ .

(٥) النساء آية / ٥٩ .

(٦) القيامة آية / ١٨ .

(٧) الحجر آية /٩ .

(٨) أنظر « إرشاد الفحول » للإمام الشوكاني (٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢) . ط : أولى . وانظر الإحكام في أصول الأحكام للعلامة الآمدي « ١: ٢٢٨ - ٢٤٠ » ، ط : مطبعة المعارف ١٣٣٢ هـ .

(٩) العلق آية / ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥

(١٠) رواه البخاري عن السيدة عائشة (١- ٦) رواه مسلم (١-١٤٤) .

(١١) البقرة آية / ٢٨١ .

(١٢) المائدة آية/ ٣

(١٣) الحجر آية / ٩

(١٤) فصلت آية / ٤٢ .

(١٥) الإسراء آية /٨٨ .

(١٦) هود آية / ١٣.

(١٧) البقرة آية /٢٣-٢٤ .

(١٨) النساء آية / ٨٢

(١٩)العنكبوت آية / ٤٨ .

(٢٠) النحل آية / ١٠٣ .

(٢١) هود آية / ٤٩ .

(٢٢)الروم آية / ١.٢.٣.٤

(٢٣) الأنفال آية / ٧

(٢٤) الفتح آية ٢٧.

(٢٥) النور آية / ٥٥ .

(٢٦) فصلت آية /٥٣ .

(٢٧) القيامة آية / ٤ .

(٢٨) الأنعام آية / ١٢٥ .

(٢٩) الحجر آية ٢٢ .

(٣٠) الأنبياء آية /٣٠ .

(٣١) المؤمنون آية / ١٢. ١٣. ١٤. ١٥. ١٦.

(٣٢) يس آية / ٣٨ .

(٣٣) يس آية / ٤٠ .

(٣٤) النمل آية /٨٨ .

(٣٥) المائدة آية / ١٥، ١٦ .

(٣٦) الإسراء آية /٩ .

(٣٧) النساء آية /١١ .

(٣٨) النور آية / ٤ .

(٣٩) النور آية /٢ .

(٤٠) البقرة آية / ٢٢٨ .

(٤١) المائدة آية /٣٨.